ارز لبنان ومغارة قاديشا

للمرحوم مصطفى الشهابي

لا يسمع الانسان باسم الارز الا وترتسم في ذهنه صورة فيها جمال واتساق وروعة وعظمة ، صورة شجرة من دهاقين الشجر وسادتها وسرحة من سراة الدوح وعيونها تفتك بعين سامتها الشاهق وبطول اغصانها المعترضة (الافقية) وبخضرة اوراقها الخالدة وبقيام ثمارها البيضية كالشموع او كالقناديل على الاغصان دون الورق . ولا عجب فالارز شجر الرب المنسوب الى اكرم فصيلة نباتية وهي الفصيلة الصنوبرية لان فيها ملوك النبات كما ان في الفصيلة النخلية امرائها

ولكم تاقت النفس الى رؤية هذا الشجر المبارك في حرمه والى ولوج المغارة التي تتدفق منها مياه نهر قاديشا القدسية حتى اتاحت لي الايام فرصة انتهزتها في ١٢ آب (اغسطس) ١٩٣٢ فكتبت بعدها هذه الكلمات

الارز من اعظم اشجار الفصيلة الصنوبرية لكنه ليس انفعها ولا اكبرها قدّاً . فانواع الصنوبر اكثر انتشاراً منه واعم نفعاً وكذا الشوح والعرعر والتاب وغيرها . وقلما يزيد علو الارزة على ٤٠ متراً على حين ان الشجرة الجبارة (وهي تدعى سكويا في كليفورنيا) يبلغ قدها ١٣٠ متراً في بلادها . وهي من الفصيلة نفسها

وللارزة الصغيرة ساق ملساء تضرب الى اللون الرمادي اما المعمرة فلها ساق سمراء مخزوزة اللحاء خزّاً غير عميق . ويكون لكل شجرة ساق واحدة في الغالب وعليها الفروع والاغصان لكنه قد يكون للارزة ساقان او ثلاث سيقان احياناً تعلو صُعُداً على مقربة من الارض وربما اندغم بعضها ببعض اندغاماً جزئياً او كلياً على طول الزمن . وقد شاهدنا كثيراً من اشجار الارز القديمة لكل منها جذعان او اكثر

وفروع الارز قوية غليظة تمتد امتداداً افقياً الى بعيد وتقصر على التتابع كلما قربت من قمة الشجرة ويلتف عليها اغصان كثيفة عظيمة تغطيها الاوراق في جزئها الاعلى فيكون للشجرة شكل مخروطي او شبيه بالبيضي له في العين روعة وجمال . ويكون الورق اما متفرقاً على الغصن السنوي او مجتمعاً خصلاً على زنود اي عصيات طول كل منها سنتيمتر تقريباً . والشكل الثاني اعم . وعدد الاوراق على كل زند ٣٠ — ٥٠ ورقة . وهذه دائمة ابرية الشكل خضراء حالكة رأسها قاس يكاد يكون شائكاً ويبلغ طولها سنتيمتراً الى سنتيمتر ونصف في معظم الاوراق التي قسناها

والزهرة وحيدة الجنس وكلا الزهرتين الذكرية والانثوية على شجرة واحدة . والازهار في اواخر الصيف . وتسمى الزهرة هريرة في علم النبات . فالهريرة الذكرية غلبقة اسطوانية متراصفة الدلوس اي العصفات وهي صغيرة لا يتجاوز طولها سنتيمترين او ثلاثة فيما شاهدناه منها وتقوم على غصينات فوق الورق . اما ثمرة الارز فهي من الثمار المخروطية (كون) قست عدداً منها فبلغ متوسط طول الواحدة ٧ — ٩ سنتيمترات وقطرها ٤ — ٥ سنتيمترات . وهي تكاد تكون بيضية او اهليلجية تقوم على غصنين فوق الورق وتنضج في سنتين ولا تتفتح الا في ثلاث سنين او اربع فتنتثر البزور وتبقى الثمرة على الاغصان . وقد شاهدت ثماراً في مختلف هذه الحالات . وبزرة الارز ثخينة رابيجية ذات زوايا يعلوها جناح مستطيل . وهي تشبه بزرة التنوب لكن غلاف بزرة الارز (وتسمى القدفة نباتيًّا) اكثر لمعاناً واشراقاً

ويستخرج البزر من الثمرة التي لم تتفتح على الشجرة بنقعها في الماء البارد يوماً او يوماً ونصفاً ثم توضع في الشمس فتنفصل العصفات بعضها عن بعض فتؤخذ البزور بسهولة. والبزرة المزروعة تنتش فيخرج مع السويق ثماني وريقات فنقية ويضرب الجذير في الارض الى غور بعيد . ويكون نمو الارزة بطيئاً جداً في السنين الخمس الاولى من حياتها ثم تزداد الشجرة نشاطاً ورسوخاً مع الزمن . ولا تتحمل الارزة الصغيرة الظل ولا النقل من ارض الى ارض وكثيراً ما يتلفها النقل او يفقدها رأسها فتكف عن النمو الى فوق فيسوء مظهرها

وخشب الارز الخارجي تحت اللحاء ابيض اللون اما خشب القلب فاحمر وردي او احمر الى صفرة . وخلاياه دقيقة متجانسة مرنة . ويحتوي الخشب على جيوب راتينجية متفرقة تجعل له رائحة خاصة زكية . ووزن الخشب النوعي ٠/٨٠٦ الى ٠/٨٠٨ ويختلف الخشب من حيث جودته بحسب المكان الذي عاشت شجرة الارز فيه فاذا كانت الشجرة نامية في ارض جبلية عالية بعيدة عن الاشجار السائرة يكون خشبها جيداً وجديراً بالشهرة التي نالت خشب الارز في سالف الزمان . اما اذا عاشت الشجرة في سهل ونمت بسرعة فان خشبها يكون رخواً اسفنجيًّا قليل الصلابة. وقد نُقل الارز الى فرنسا منذ قرنين والى انكلترا منذ قرنين ونصف تقريباً. وهو هنالك يحتمل هبوط الحرارة الى ٢٥ درجة تحت الصفر. ويرى الشجّارون وعلماء الحراج انهُ من اجمل الاشجار واروعها في حدائق التزيين لكنهم يرون ان في بلادهم اشجاراً كثيرة اصلح منهُ في الحراج من حيث استعمال خشبها وقيداً او استعماله في الصناعة

وللأرز ذكر في تاريخ كل الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام او غزتها . فسليمان الملك استغل عشرة آلاف عامل في قطع شجر الارز والشوح من حراج لبنان لبناء هيكل اورشليم. وكان البابليون والآشوريون يستعملون خشب الارز في بناء هياكلهم . واستعملهُ المصريون الاقدمون في صنع السفائن واثاث البيوت والجسور والتوابيت . وعدّ احد علماء

الآثار اثناء التفتيش عن مخلفات الاشوريين على خشب الارز الذي كان هؤلاء يستعملونهُ منذ ثلاثة آلاف سنة ونيف فاذا بهِ لا يزال صلباً ومعطراً رائحة الراتينج النعشة . وكان القدماء يعتقدون بأن الفساد لا يتطرق اليهِ ولذلك كانوا يصنعون منه اصناماً لآلهتهم كما كانوا يصفحون بهِ جدران الهيا كل . واتسعت تجارة خشب الارز قديماً وعمت فوائده وصار الفراعنة وملوك العجم وبابل وآشور يتطلبون الخشب من خراج لبنان جزيةً على الناس

ومن المعروف ان لكل نبات مهداً اصليًّا يعيش فيهِ وينتشر منهُ الى الاصقاع المجاورة فجبال لبنان وطن الأرز او هي من مواطنهِ الأصلية [1] . ولا شك ان تربة هذه الجبال وهواءها يلائمانه كل الملائمة وانه كان قديماً اتم اشجار الحراج في ذلك الاقليم . ويتضح من آثار الأقدمين ان حراج لبنان كانت عظيمة الشأن في العصور الخالية وانها كانت تغطي معظم روابيه ووهاده وان اتم اشجارها الأرز والشوح والعرعر والقزاب والسنديان والملول وغيرها . وكل هذه الأنواع مبذولة فيهِ اليوم الا الارز فان منه بقايا في بقاع قليلة وهي بشري والحدث (حدث الجبة) وامدن وسير وعين زحلتا ومعاصر الشوف والباروك حيث يسمى الأرز

ارز بشرّي

اعظم حراج الأرز شأناً واقدمها سنًّا حرج بشرّي فهو الذي يطلقون عليهِ اسم « ارز لبنان » تعميماً وهو الذي صوروا احدى شجراتهِ على علم لبنان الحاضر وهو ايضاً الحرج الذي زرناه وكتبنا فيهِ هذه المقالة . ويقع هذا الحرج في جبل المكمل (يلفظونهُ بميمين مفتوحتين بينهما كاف ساكنة) الواقع شرقي طرابلس بين جبل العاقورة جنوباً وجبال عكار شمالاً . وجبل المكمل هذا هو الذي فيهِ اعلى قمم لبنان كقمة قم الميزاب وقرنة السودا وضهر القضيب . ولم اصعد في الجبل فوق الأرز الا قليلاً . ولم اصل الى هذه القمم ولذلك اضطررت في معرفة علوها فوق سطح البحر الى مراجعة ما لديَّ من المآخذ كخريطة لبنان التي رسمتها الحملة الفرنسية سنة ١٨٦٠ — ١٨٦١ وخريطة بلاد الشام التي صنعها ديوان المساحة في جيش الشرق الفرنسي سنة ١٩٢٨ وكتاب لبنان الذي الفهُ عدد من العلماء خلال الحرب الكبرى وطبع في بيروت سنة ١٣٣٤ رومية بهمة المتصرف اسماعيل حقي بك وغيرها فألفيت علو ضهر القضيب ٣٠٦٣ متراً وعلو قم الميزاب ٣٠٤٧ متراً وعلو قرنة السودا (هكذا يلفظها الأهالي ويجب كتابتها القرنة السوداء) ٣٠٨٨ متراً وهي اعلى قمة في بلاد الشام لان قمة صنين لا يزيد علوها على ٢٦٠٨ امتار وقمة جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً

(١) في الجزائر صنف من ارز لبنان يسمى ارز لبنان الاطلنطي (ومن النباتيين علماء يجعلونهُ نوعاً مستقلا) في حراج واسعة بولاية قسطينة خاصة . وهو موجود ايضاً في جبال الريف من اعمال مراكش ويعرف باوراق اقصر من اوراق ارز لبنان وثمار اصغر . وفي جبال هلايا وجبال التبت شمالي الهند نوع يسمى ارز هلايا ربما بلغ ارتفاعه في بلاده ٦٠ — ٧٠ متراً . اوراقه اطول من اوراق ارز لبنان وثماره اكبر

وتقع حرجة ارز بشرّي في وسط الدائرة المتكونة من قمم جبل المكمل تلك الدائرة التي تنتهي في الجهة الغربية حيث تتدفق مياه نهر قاديشا . وتعلو الحرجة ١٩٠٠ متر ونيف عن سطح البحر وفيها ٤٠٠ ارزة تقريباً كبيرة وصغيرة[١] . فاما كبيراتها ففيها جلال مسوّق الشجر العظام . ولقد قست ساق كبراها فبلغ محيطها نحو ١٦ متراً وعمرها اكثر من الفي سنة ويقول بعضهم انها تبلغ ٤٠٠٠ سنة من العمر لكنه لا يمكن معرفة سنها على وجه الضبط ولا على وجه التقريب . وشاهدت اربع ارزات مسنة محيط ساقها بين ١٢و١٣ متراً وعلوها نحو ٣٠ متراً وسنها اكثر من الف سنة في الغالب . اما باقي الاشجار فاقل ضخماً واقصر عمراً ومع هذا فهي هنالك منذ بضعة قرون إن لم تكن كلها فمعظمها . ولا تخلو الحرجة من اشجار فتية

ومما يسترعي النظر ان رحالة من الغربيين اسمهُ رولوف Rauwolff ذكر في سنة ١٥٧٤ ان الاشجار الهرمة العتيقة الجذوع تبلغ ٢٦ شجرة عدًّا . اما اليوم فهي لا تزيد على بضع شجرات كما ذكرت والباقي عملت به يد المحتطبين والجهال من سكان ذلك الجبل . وادرك المتصرف المعروف رستم باشا بكاية البقية الباقية من حرجة بشري فأحاط معظم اشجارها بسور من حجر وصرف عنها اذى الناس ثم عيّنت حكومة لبنان لها حارساً ودليلاً يطوف بالسياح وطالبي الفائدة . وعبدت الطريق بينها وبين بشري فصار من الصعب ان يقدم احد على قطع شجرة دون ان تدري الحكومة به فتعاقبهُ

والتطعيم الطبيعي امر مألوف في الحراج وفي اغصان الشجر المتجاورة . وهو ان يحتك غصن بغصن بفعل الهواء وضيق المكان فيحتُّ لحاؤهما فتتماس الماديان المولدتان الواقعتان بين الخشب واللحاء فيلتصق الغصنان ويغلظان مع الزمن . وقد شاهدت في ارز بشري اشجاراً متجاورة حصل في سوقها تطعيم طبيعي واخرى حصل في فروعها . ورأيت ارزة احترق ساقها وهي لا تزال حية لانها تستمد الغذاء من فرع شجرة مجاورة أنشبته[٢] الطبيعة في الشجرة المحروقة فوق ساقها . وهنالك شجرة يسمونها ارزة لامارتين وهو الشاعر الفرنسي المشهور نقش اسمه واسم ابنته جوليا على ساقها ونقش التاريخ ايضاً فكان سنة ١٨٣٢ اي منذ قرن تماماً . وعلق شباب بشري لوحة على الشجرة تذكاراً لزيارة الشاعر الموماً اليه للارز

وهنالك ايضاً شجرة يسمونها ارزة الناسك وارزة الراهب وارزة الحبيس يزعمون ان ناسكاً كان يقيم في تجويف ساقها فيأكل من المن ويشرب من ماء في داخل الشجرة . ولعل هذا الماء الذي تلمساه يحصل من ذوب الثلج المتراكم في الساق او لعله من طلّ الشجرة اي ندّيها وهو اقرب الى الذهن

---

(١) قرأت في احد كتب الاشجار القديمة ان القبطان الانكليزي السير اوليفر Oliver عد منها ٣٨٤ ارزة مختلفة القد في سنة ١٨٧٨ . وحاولت عدها فلما بلغت الرقم ٢٩٠ اخطأت العد فأحجمت لضيق الوقت

(٢) التطعيم والتركيب والانشاب بمعنى واحد

ولفتت نظري تربة الرابية التي فيها الارز والتربة التي تحتها فهي لا تشبه في علم الجيولوجية رواسبات الحقبة الرابعية التي كوّنتها الانهار والسيول بل هي قنّ اي حجارة كبيرة وصغيرة معظمها كلسي خاص بعضها ببعض مما يدل على انهُ كان يوجد في الحقبة الرابعية وكلم جليدي مكان الارز Glacier وراجعت لاتثبت من ذلك كتاب جيولوجية لبنان للعالم اليسوعي زومو فن احد اساتذة الجامعة اليسوعية في بيروت فاذا به يرجح هذا الرأي ترجيحاً لكنهُ يذكر ان معظم العلماء من الرواد على هذا الرأي مثل هوكر وفراس ولارته وطومسون وغيرهم اما جبل المكمل وكل الهضاب المحيطة بوادي قاديشا فهي جيولوجيًّا من الاراضي الطباشيرية التابعة للحقبة الثانية . وتتكون الاراضي الطباشيرية على بضع طبقات لكل منها اسم وجميعها تتجلى في اعضاد الوادي العميق الذي حفره نهر قاديشا . وتراب هذه الطبقات كلسي الا تراباً رمليًّا يسمونهُ رمل نوبيا شاهدناه بين بشري وارمدن وبالقرب من حدث الجبة . وهو مبذول في انحاء لبنان . ولابد لشلي ممن يأنسون بالنبات وحياته ان يتعرف الى الاعشاب الجبلية في حرجة الارز وحولها وهذه الاعشاب عديدة تنتسب الى فصائل مختلفة في ابان الازهرار على حين اننا في آب (اغسطس) . فما عرفته منها النباتات الآتية :

برباريس	Berberis	عرق الطيّون	Inula viscosa
إيتس	Iatis	انواع من الجُرَيس	Campanula
القرنفل القصير الورق	Dianthus brevifolis	انتركس	Anthriscus
جبسوفيلا	Gypsophilla	سراستيوم	Cerastium
زهرة الرمال الابرية	Arenaria cassia	انواع من البنفسج بقرب اهدن الخ . . .	
التين	Opuntia		

مغارة قاديشا

هي المغارة التي تخرج منها مياه نهر قاديشا وهي في جنب جبل الارز فوق وادي قاديشا الشهير . ولفظة قاديشا هذه لفظة آرامية معناها المقدس توجد بهذا المعنى في كل اللغات السامية . ويظهر ان قداسة الوادي المذكور منبعثة من انهُ كان يقطن جماعة من النساك كهوفه ومغاوره . ويرى الانسان في تلك المغارة صورة جميلة لتأثير المياه الشديد في الصخور الكلسية فمياه قاديشا تحفر خاصة من ذوبان الثلج على قمم جبل المكمل وسفوحه لا من الامطار التي تهطل عليهِ . والدليل على ذلك ان الماء يشح في الشتاء واوائل الربيع لا في الصيف . ولقد شق الماء طريقاً في الصخور الكلسية على بعد مئات من الامتار فتكونت مغارة قاديشا . وسالت نقاط الماء في اماكن عدّة من سقف المغارة وجوانبها فأكلت منها ما تحويه من الغاز الكربونيك فرسبت مذوبات كربونات الكلس فحفل منها مجموعة بديعة من الشموع الرواسب التي يسمونها

في علم الجيولوجية استلاغتيت واستلاغميت. وأنيرت المغارة بالكهرباء فصار لهذه الشموع منظر جميل ومهيب. ومن العجيب ان بعض الشموع الرواسب تشبه اناساً مشهورين في التاريخ فهذه فيكتوريا ملكة الانكليز وذاك السلطان عبد الحميد وذلك توت عنخ آمون بعينه وهلم جرًّا

وعندما يخرج الماء من المغارة ينصب في الوادي على شكل شلال رائع المنظر الى عمق ثلاثمائة متر تقريباً. لكن شركة قاديشا الوطنية لتنوير الكهربائي ضبطت قسماً من ماء النهر واسالته في قناة حفرتها في لحف الجبل على طول ٩٥٠ متراً ثم هرت به في انبوب عظيم الى قعر الوادي حيث بنت معملاً لتوليد الكهرباء

الخلاصة

جمال الجبال في القمم العمودية او المسننة والمياه المتدفقة والمنابع البيضاء والوديان السحيقة والطرائق الملتفة. وحظ لبنان من ذلك اقل من حظ جبال اوربا الشهيرة كجبال الالب وجبال البرانس. لكن لبنان يمتاز بسمائه الصافية طول الصيف وقربه من سائر بلاد الشرق العربي وبلطف سكانه وهي العربية ويمتاز شمالي لبنان عن جهاته السائرة بالارز ومغارة قاديشا ووادي قاديشا الذي لم ار اروع منهُ في كل انحاء لبنان

وفي الارز فندق حديث فيهِ كل وسائل الراحة. ويبنون اليوم فندقاً كبيراً بقرب الارز على الرابية الواقعة فوق مغارة قاديشا في مكان مطل على الوادي وقراهُ. وربما تم بناؤه في السنة القادمة. وعبدت الطريق بين بشري والارز. وجرت مياه نبع شاغورة الى الارز وحوالبه وأنيرت كل القرى المهمة بالكهرباء كأهدن وحصرون وبشري وغيرها. ومدَّت اسلاك الكهرباء الى الارز والى طرابلس حتى مقر شركة السمنت عند رأس الشقمة. ويمكن الذهاب من طرابلس الى الارز في طريقين معبدتين الاولى طريق الحدث وحصرون وبشري والارز. والثانية طريق زغرتة واهدن وبشري والارز وتكاد تكون المسافة واحدة في الطريقين (٦٠ — ٦٣ كيلو متراً) وكلاهما جميل ينتقل فيه المرء من الساحل وموزه، فالكورة وزيتونها، فالجبل المتوسط الارتفاع وتينه وعنبه وصنوبره وأبهره وبطمه فالجبال العالية وسنديانها ودفرانها وتنوبها وأرزها

ووسائل الراحة متوفرة في كل فنادق بشري وحصرون واهدن والارز. والقرى الثلاث الاولى تعلو اكثر من ١٤٠٠ متر عن سطح البحر. اما الارز فاكثر من ١٩٠٠ متر كما ذكرت ولذلك يمكن الانسان ان يتصور مبلغ نقاء الهواء وبرودته في الصيف. فميزان الحرارة عند ما كنا هنالك في آب (أغسطس) لم يزد على ٢٥ درجة في الفرط. وكان يهبط ليلاً الى ١٤ درجة وهذه هي حرارة الربيع في دمشق وحرارة الشتاء في مصر في كثير من ايام هذين الفصلين